

المحاضرة الثانية عشر: أهمية النّحو

نشأ النّحو نشأة بسيطة على يد جماعة من اللغويين أشهرهم أبو الأسود الدؤلي، فكثير من الروايات تدور حول هذه الشخصية الفدّة من ذلك ما ذكره سعيد الأفغاني : "وتكاد قصة بنت أبي الأسود تكون المعلم المشهور في تاريخ النّحو، فقد دخل عليها في وقدة الحرّ بالبصرة، فقالت له : يا أبتى ما أشدّ الحرّ رفعت أشدّ، فظنها تسأله وتستفهم منه، أيّ زمان الحرّ أشدّ فقال لها : شهر ناجر فقالت : يا أبتى إنما أخبرتك ولم أسألك"¹ ؛ وهناك روايات أخرى مبثوثة في ثنايا المصادر، وكلّها تشير إلى أنّ اللّحن قد تفشى في اللسان العربي فكان لابدّ أن تنشأ مع بدايات العصر الأموي دراسات لغوية تُعنى بتقويم اللسان وحفظه من الزلل كنظيرتها التي نشأت من أجل حفظ اللّغة وتدوينها، وليس من الصواب البتة أن تُعزى نشأة النّحو العربي إلى أصول أجنبية كما ذهب إلى ذلك بعض الدارسين، وذلك أنّ طبيعة الأمور في تطوّرها عبر الزمان والمكان تحيل على أن نشأة النّحو كانت عربية كنشأة بقية العلوم الأخرى في ظلّ الملة الإسلامية.

ولقد تطور المجتمع العربي، واتّسعت رقعته، ورافق ذلك اتساع في الثقافة، وارتقاء في التفكير بسبب² التفتح على الثقافات الأخرى، فكان لابدّ أن ينتقل هذا العقل إلى طور التفكير والابتكار، فكما نشأت حركات التأليف في مجالات أخرى كالطب والهندسة والفقه وأصول الفقه واللّغة، فمن الطبيعي أن ينبّه انتشار اللّحن علماء اللّغة إلى الاعتناء بالدراسات النّحوية، ولا غرابة أن يطالعنا سيبويه بكتاب متكامل في النّحو العربي.

فشعر علماء اللّغة بأهمية النّحو في الدراسات اللغوية، و عدّوه مقياسا أساسا للتفريق بين المعاني³

¹ المصدر 10

² المصدر 9

³ المصدر 10

المتداخلة في مختلف التراكيب اللغوية، وبخاصة حينما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم، فإن اختلاف الحركات الإعرابية التي تَعْتَوِرُ أواخر الكلمات يترتب عليها اختلاف في الدلالات، وإذا كان النحو هو العلم الذي يحدد العلاقات بين الكلمات في التراكيب اللغوية، ويبيّن وظائفها الدلالية، فإن الإعراب هو تلك الحركات التي تعدّ أعلاما لتبيان المعاني النحوية، ويذكر الزجاجي الفائدة من تعلّم النحو بقوله: "فإن قال قائل: فما الفائدة في تعلّم النحو، وأكثر الناس يتكلمون على سجيّتهم بغير إعراب، ولا معرفة منهم به، فيفهمون ويفهمون غيرهم مثل ذلك؟ فالجواب في ذلك أن يقال له الفائدة فيه الوصول إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صوابا غير مبدّل ولا مغيّر وتقويم كتاب الله عزّ وجلّ الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد ومعرفة أخبار النبي -صلى الله عليه وسلم- وإقامة معانيها على الحقيقة لأنه لا تفهم معانيها على صحة إلاّ بتوفيتها حقّها من الإعراب..."¹

يحلينا قول الزجاجي على أن وظيفة النحو تتجاوز الصناعة اللفظية التي بموجبها تتحدّد الوظائف² النحوية للكلمات في التركيب اللغوي، كمعرفة الفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر إلى غير ذلك، وإنما يقصد بقوله "الوصول إلى التكلم بكلام العرب..." التعمّق في فهم طبيعة الكلام العربي لاكتساب السليقة العربية عن طريق الميران والممارسة والتدرّب على النصوص المتواترة عن العرب، وفي قمتها القرآن الكريم الذي قال فيه عزّ وجلّ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} يوسف-2، وقال {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} الشعراء-195- و قال: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} الرعد-37، فوصف القرآن بكونه عربيا مرفوقا بالدعوة إلى التأمل، ووصفه بكونه عربيا مبينا وعربيا مستقيما، كل ذلك إشارة إلى تأمله في حركاته وسكناته، أي في نحوه للنفاذ إلى معانيه ودقائق أسرارهِ التي لا يتوصّل إليها إلاّ بمعرفة خصائص الكلام

¹ الإيضاح في علل النحو. - ص. 95

² المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

العربي، ولن يتأتى ذلك إلا بمعرفة ضوابط هذا الكلام التي صاغها لنا النحاة في قواعد نحوية.

ونخلص إلى أن النّحو ليس مقياسا شكليا يعتمد عليه كالمَنوال تصب فيه الكلمات والتراكيب، وإنما¹ هو تدريب على طبيعة الكلام العربي للتحكم في صياغته اللفظية والدلالية معا ، ولقد كان ابن جني على درجة كبيرة من الوعي حين عرّف النّحو بقوله السابق : "أما حدّه فهو انتحاء سمت كلام العرب"، فلننظر إلى قوله هذا ليتبين لنا أنه يريد احتذاء كلام العرب في طبيعة نطقها وكيفية صياغة تراكيبها من حيث الإعراب والدلالة معا، ولننظر إلى قوله : "يلحق من ليس من أهل اللّغة العربية بأهلها في الفصاحة"، والفصاحة عند ابن جني هنا هي أن يتوصل الناطق باللسان العربي إلى اختيار ألفاظه، وصياغة تراكيبه، وفصاحة لسانه وفق ما كان مألُوفاً من قَبْلُ لدى العرب.

ومازال المتأخرون من علماء اللّغة والبلاغة معا يشعرون بأهمية النّحو لمعرفة اللّغة والوقوف على² دلالاتها المختلفة، إيماناً منهم بأن النص العربي الفصيح، وفي قَمّته القرآن الكريم لا يتوصل إلى دقائق معانيه، وخواص تراكيبه، واستجلاء دلالاته، إلاّ بالتعمّق في فهم النّحو، وتجاوز البنى السطحية التركيبية إلى الدلالات الباطنية التقديرية، كذلك يقول السكاكي : "اعلم أن علم النّحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء تلك الكيفية..."³ ومما يقصده من كيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض، ولا تخفى أهمية التقديم والتأخير في⁴ عناصر الكلام وما يترتب عليها من اختلاف في الدلالات المستفادة من الكلم، كما أنه قد يكون سببا في

¹ المصدر 12

² المصدر 13

³ مفتاح العلوم. - ص. 75.

⁴ المصدر 14

تشويش العبارة وجعلها خاطئة، إذا لم يجر على سنن العرب في كلامها، وقد كان عبد القاهر الجرجاني أكثر تعمقا في فهم النّحو، وربطه بالدلالة والبلاغة، وهو يحاول صياغة نظرية جديدة أسمّاها نظرية النظم، حيث يقول : "فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطأه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلاّ وهو معنى من معاني النّحو، قد أصيب به موضعه ووضعه في حقّه وعومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساد، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلاّ وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النّحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتّصل باب من أبوابه"¹.

فالنّحو عنده شامل للإعراب والدلالة والبلاغة معا، فهو المعيار الذي يميّز به نقصان الكلام أو² رجحانه، والأساس الذي به يحكم على الكلام من حيث الإجادة والإصابة في تصوير المعاني وملاءمتها للموضوع الذي تعبّر عنه، وذلك أنّ الفكر يتعلّق بمعاني النّحو أي بالكلام مضموما بعضه إلى بعض، وآخذا بعضه بأطراف بعض، وهذا هو المتوخى في علم النّحو، فلا يمكن الوصول إلى معاني الألفاظ ودلالاتها عبر السياقات المختلفة إلاّ عن طريق إدراك العلاقات التي تربط بينها، وهذا هو موضوع النّحو.

ونجد عند التأمل أنّ علماء اللّغة كانوا نحويين في معظمهم، وأنّ علماء النّحو كانوا لغويين أيضا، وقد عبّر ابن خلدون عن هذه الحقيقة، حيث اعتبر النّحو من أركان اللسان العربي، بقوله في فصل علوم

¹ دلائل الإعجاز. - ص. 78.

² المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

³ مقدمة ابن خلدون. - ص. 409.

اللسان العربي : "أركانه أربعة، وهي اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة"¹.

ويتبين من هذا القول أن هذه الأربعة مرتبطة حتى لا انفصام بينها، ولا يكون².

العالم عالماً باللغة حتى يكون ملماً بهذه الأربعة كلها، فلا يتصور عالم باللغة بغير علم بمقاصد الكلام³ ووجوهه التي هي من خصائص البيان، والنحو والوقوف على المتواتر من كلام العرب.

وقد سمي النحو العربية، وفي ذلك دلالة على أنه لا بدّ لعالم اللغة من معرفة النحو وإلاّ ضاع منه معرفة وجوه الكلام والتفريق بين معانيه، كما سمّوه كلاماً ولحناً وإعراباً وجاء في عيون الأخبار : "إذا سرك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيراً، ويصغر في عينك من كان في عينك عظيماً، فتعلم العربية، فإنها تجريك على المنطق وتدنيك من السلطان... ويقال النحو في العلم بمنزلة الملح في القدر والرامك في الطيب".⁴ وقال بعض الشعراء⁵:

النَّحْوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الْأَلْكَنِ وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجْلَهَا فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مَقِيمُ الْأَلْسُنِ

¹ المصدر نفسه

² طبقات فحول الشعراء. - ص. 12.

³ 19

⁴ 19

⁵ 20

مما سبق يتبيّن أن اللغويين كانوا يعتمدون على النّحويين، ويعتدّون بأقوالهم في تفسير كلام العرب¹؛ لأنّ اللغة تقتضي بالضرورة قوانين تسيّرّها وتحفظ انتظامها، وهذا ما جعل عالما نحويًا كالزّجاج يعتمد على أقوال النحاة وهو بصدد شرح المعاني وبيان مزاياها اللغوية والبلاغية.

هذا و قد أجمَعَ الأئمّة من السّلف والخلف قاطبة على أنّ النّحو شرط في رتبة الاجتهاد، وأن المجتهد لو جمَعَ كلّ العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يعلم النّحو، فيعرف به المعاني التي لا سبيل لمعرفتها بغيره، فرتبة الاجتهاد مُتَوَقِّفة عليه، لا تتم إلّا به².

¹ 25

² 22